المبحث العاشر

التعايش مع الطاعة

التعايش مع الطاعة

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]

اللهم اجعلنا في معية، ومحبة الصديقين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم .

إن كل مكان في الجسم يستطيع أن يكون نقيًّا أو ملوثًا، فإذا أمسكت بهذا السواك واستخدمته استخدامًا نبويًّا نرتفع، ولكن إذا أمسكت شيئًا قبيحًا فإنه يعلم ما في يدك، فأنت محتاج إلى النقاء والابتعاد عن أسباب التلوث والمعاصي، ورائحة النتن التي تنبعث عند عمل معصية، وإذا أرضيت الملك لابد وأن تنبعث منك رائحة طيبة، لابد من إزالة أسباب الضرر للغير، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]

أي: والذين جاءوا من المؤمنين من بعد الأنصار والمهاجرين الأولين يقولون: ربنا اغفر لنا ذنوبنا، واغفر لإخواننا في الدين الذين سبقونا بالإيمان، ولا تجعل في قلوبنا حسدًا وحقدًا لأحد من أهل الإيمان، ربنا إنك رءوف بعبادك، رحيم بهم.

وفي الآية دلالة على أنه ينبغي للمسلم أن يذكر سلفه بخير، ويدعو لهم، وأن يحب صحابة رسول الله ﷺ، ويذكرهم بخير، ويرضى عنهم.

حالة التوقف عن الطاعة حالة إفلاس وفلس وسوء خاتمة، والله رب العالمين يريد منك أن تكون منغمسًا في الطاعة، ومستمرًّا فيها.

النقاء أن تبتعد عن أسباب التلوث، وما هي أسباب التلوث؟ ولابد من النقاء من الداخل والخارج .

من أين تأتيك المعاصي؟ عند الجلوس مع من يقول: قيل وقال، شخص يبتعد عن أسباب التلوث، وآخر يلقى بنفسه في التهلكة، ماذا قال الملك لكي يبقى اللسان والقلب نقيًّا لا يعرف القيل والقال؟

جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [القصص:٥٥].

أي: وإذا سمع هؤلاء القوم الباطل من القول لم يُصْغوا إليه، وقالوا: لنا أعمالنا لا نحيد عنها، ولكم أعمالكم ووزرها عليكم، فنحن لا نشغل أنفسنا بالرد عليكم، ولا تسمعون منَّا إلا الخير، ولا نخاطبهم بمقتضى جهلكم؛ لأننا لا نريد طريق الجاهلين ولا نحبها، وهذا من خير ما يقوله الدعاة إلى الله.

كيف أنجو من أسباب التلوث والمعاصي؟

الرحمن ﷻ علمنا، ولا ينبغي أن نعود للجاهلية، إذا رأيت إنسانًا يريد فعل خير ساعده على ذلك، ومن عنده الرغبة ضعيفة في فعل الخير ماذا تفعل؟ ينبغي أن تأخذ بيده؛ لتساعده في فعل الخير .

كيف تقبل أن تعيش مع رجل أو امرأة لا يصلي وليس نقيًّا؟ وكان ينبغي أن تحببه في الصلاة، وإذا ذكر أحد بسوء لا تتحدث، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام:٦٨].

أي: وإذا رأيت أيها الرسول المشركين الذين يتكلمون في آيات القرآن بالباطل والاستهزاء؛ فابتعد عنهم حتى يأخذوا في حديث آخر، وإن أنساك الشيطان هذا الأمر، فلا تقعد بعد تذكرك مع القوم المعتدين، الذين تكلموا في آيات الله بالباطل.

فإذا ما تذكرت الحيَّ القيوم، فليس لك أن تجلس مع من ظلم نفسه،

الذين يمشون على الأرض هونًا، التواضع والانكسار لقيوم السماوات والأرض؛ لأنه إذا بطش على الأرض وأفسد فيها، فإن الأرض ناطقة عليه وشاهدة عليه .

ولا تستوي حسنة الذين آمنوا بالله، واستقاموا على شرعه، وأحسنوا إلى خلقه، وسيئة الذين كفروا به وخالفوا أمره، وأساءوا إلى خلقه، ادفع بعفوك وحلمك وإحسانك مَن أساء إليك، وقابل إساءته لك بالإحسان إليه، فبذلك يصير المسيء إليك الذي بينك وبينه عداوة كأنه قريب لك، شفيق عليك، ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنعام:٦٨].

ضرب الله مثلًا لرجل فيه شركاء متشاكسون - ملوثًا - أي كل جزء فيه مشدود بشيء معين، لا يستطيع التركيز في أي عباده .

إن بعض الناس عندما تتقدم بهم مشاكل الحياة تذهب عنهم الإشراقات التي كانوا يعيشونها في فترة من فترات حياتهم لا أريد أن يكون قلبك خارج إطار الخدمة، لا أن يكون قلبك داخل إطار الخدمة .

بعض الناس تأتي المشاكل في الحياة بأيديهم، وهناك ستر في حياته، ويريد الظهور على وجه الدنيا؛ فيبدأ الاقتراض؛ لينشيء شركةً أو مصنعًا أو محلاً، لا أمانع أن تعمل في الحياة لكن أعمل في المجال المهيأ لك، والذي تعرفه.

لكن كي تمتد عيناك، ويدك إلى ما ليس لك، وتتوسع بدون قاعدة، فإنك تجلب الضرر على نفسك، فكنت في أمان بما كنت فيه، وفي النهاية لا يعرف ماذا يريد من الدنيا والآخرة، كما في قوله تعالى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٢٩]

أي: ضرب الله مثلًا عبدًا مملوكًا لشركاء متنازعين، فهو حيران في إرضائهم، وعبدًا خالصًا لمالك واحد يعرف مراده، وما يرضيه، هل يستويان مثلاً؟ لا يستويان، كذلك المشرك هو في حَيْرةٍ وشكٍ، والمؤمن في راحة واطمئنان، فالثناء الكامل التام لله وحده، والمشركون لا يعلمون الحق.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران:١٥٢].

أي: ولقد حقق الله لكم ما وعدكم به من نصر، حين كنتم تقتلون الكفار في غزوة أُحد بإذنه تعالى، حتى إذا تملككم الضعف والجبن عن القتال واختلفتم، هل تبقون في مواقعكم، أو تتركونها لجمع الغنائم مع مَن يجمعها؟ وعصيتم أمر رسولكم حين أمركم ألا تفارقوا أماكنكم بأي حال حلَّت بكم الهزيمة، من بعد ما أراكم ما تحبون من النصر، وتبيَّن أن منكم مَن يريد الغنائم، وأن منكم مَن يطلب الآخرة وثوابها، ثم صرف الله وجوهكم عن عدوكم؛ ليختبركم، وقد علم الله ندمكم وتوبتكم فعفا عنكم، والله ذو فضل عظيم على المؤمنين.

منكم من يريد الدنيا، ومنكم من يريد الآخرة، فعندما يأتي لك المال لابد وأن تطهره، ولابد من أن تقدم طاعة الله أولًا .

عندما تعيش فى معية من يُذكرونك بالله فهذا أفضل، ولكن تجلس مع من يأكلون ويلبسون جيدًا، ويكونون بعيدين عن ذكر الله فلا تجلس معهم؛ لأن قلوبهم قاسية بعيدة وغافلة عن ذكر الله؛ أى شراكة تنشأ بين الناس، وليس أساسها مخافة الله ﷻ فإنها تفشل وينقلب الشريك عن شريكه، ويريد أن يتخلص من شريكه، فقال الملك في سورة «ص» كما في قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾ [ص: ٢٤]

أي: قال داود عليه السلام: لقد ظلمك أخوك بسؤاله ضم نعجتك إلى نعاجه، وإن كثيرًا من الشركاء ليعتدي بعضهم على بعض، ويظلمه بأخذ حقه وعدم إنصافه مِن نفسه إلا المؤمنون الصالحون، فلا يبغي بعضهم على بعض، وهم قليل.

وأيقن داود عليه السلام أننا فتنَّاه بهذه الخصومة، فاستغفر ربه، وسجد تقربًا لله، ورجع إليه وتاب.

وإن كثيرًا من الخلطاء، وليس قليلًا من الناس ليبغي، معناها منتهى الظلم أن تأخذ ما ليس لك، قليلون الذين يحفظون قلوبهم ويخالطها الإيمان، وتكون قلوبهم تقية نقية.

فقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد:١٦].

أي: ألم يحن الوقت للذين صدَّقوا الله ورسوله، واتَّبعوا هديه أن تلين قلوبهم عند ذكر الله وسماع القرآن، ولا يكونون في قسوة القلوب كالذين أوتوا الكتاب من قبلهم من اليهود والنصارى الذين طال عليهم الزمان فبدَّلوا كلام الله، فقست قلوبهم، وكثير منهم خارجون عن طاعة الله؟ وفي الآية نجد الحث على الرقة والخشوع لله ﷻ عند سماع ما أنزله من الكتاب والحكمة، والحذر من التشبه باليهود والنصارى، في قسوة قلوبهم، وخروجهم عن طاعة الله.

وكل لحظة لا تستمع فيها للقرآن العظيم وتنفعل معه أو تصلى بدون خشوع أو تفتُر همتك عن كثير من الطاعات ... كل هذه الأشياء لا تشدك إلى طاعة الله فأين الحياء والخوف من الملك؟ كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الإسراء: ١٠٥].

وبالحق أنزلنا هذا القرآن على محمد ﷺ لأمْرِ العباد ونهيهم، وثوابهم

وعقابهم، وبالصدق والعدل، والحفظ من التغيير والتبديل نزل، وما أرسلناك أيها الرسول إلا مبشرًا بالجنة لمن أطاع، ومنذرًا بالنار لمن عصى وكفر.

فى الحديث الشريف قصة غُلام استشهد يوم خيبر، وقد هنأ الصحابة رسول الله ﷺ أنه بالجنة، فقال لهم النبي الأعظم: « **لا** » يقول: إنه ليس فى الجنة، يا رسول الله إنه شهيد. ولكنه ظلم نفسه؛ لأن الشملة أخذها قبل توزيع الغنائم ووضعها فى جيبه، ومات وهي في جيبه قطعة من نار جهنم، فقال النبي العظيم ﷺ: «**إن الشملة التى أصابها يوم خيبر من المغانم لم تصبها المقاسم لتشتعل عليه نارًا**»[1]، إنه شهيد ولكنه تعجل وأخذ قطعة قماش، ومات وهي في جيبه، فقال النبي العظيم ﷺ: «إنها تشتعل عليه نارًا» فما بالكم بالذين يموتون شهداء، ولم يكونوا فى معية رسول الله ﷺ ومات، وكان قد ظلم، وأخطأ في توزيع الميراث، ومات على هذه الحالة فكيف يكون حاله؟.

اللهم إنا نسألك الثبات في الأمر، والعزيمة في الرشد
ونسألك شكر نعمتك، وحسن عبادتك،
ونسألك قلبًا خاشعًا سليمًا، وخُلُقًا مستقيمًا،
ولسانًا صادقًا وعملًا متقبلًا.

اللهم صلِّ على سيدنا محمد عدد ما أحاط به علمك،
وجرى به قلمك، وأحصاه كتابك صلاة تكون لك
رضاءً، ولحقّه أداءً وأعطه الوسيلة والفضيلة،
والدرجة العالية الرفيعة وعلى آله وصحبه وسلم.

****

(١) صحيح البخاري، كتاب: المغازي، باب: خيبر، رقم الحديث: ٣٩٠٨.